# حكايات حارتنا

نجيب محفوظ

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صد

# الحكاية رقم « ١ »

يروق لى اللعب فى الساحة بين القبو والتكية . ومثل جميع الأطفال أرنو إلى أشجار التوت بحديقة التكية . أوراقها الخضر هى ينابيع الخضرة الوحيدة فى حارتنا . وثمارها السود مثار الأشواق فى قلوبنا الغضة . وها هى التكية مثل قلعة صغيرة تحدق بها الحديقة ، بوابتها مغلقة عابسة ، دائما مغلقة ، والنوافذ مغلقة ، فالمبنى كله غارق فى البعد والانطواء والعزلة ، تمتد أيدينا إلى سوره كما تمتد إلى القمر .

وأحيانا يلوح فى الحديقة ذو لحية مرسلة وعباءة فضفاضة وطاقية مزركشة فنهتف كلنا :

ـ « يا درويش .. إن شا الله تعيش » .

ولكنه يمضى متأملا الأرض المعشوشبة أو يتمهل عند جدول ماء ، ثم لا يلبث أن يختفى وراء الباب الداخلى .

ـ من هؤلاء الرجال يا أبى ؟

ـ إنهم رجال الله ..

ثم بنبرة ذات معنى :

ـ ملعون من يكدر صفوهم !

ولكن قلبى مولع بالتوت وحده .

وينهكنى اللعب ذات يوم فأجلس على الأرض لأستريح ثم

أغفو . أستيقظ فأجدنى وحيدا فى الساحة ، حتى الشمس توارت وراء السور العتيق ، ونسائم الربيع تهبط مشبعة بأنفاس الأصيل . علىّ أن أمرق من القبو إلى الحارة قبل أن يدلهم الظلام . وأنهض متوثبا ولكن إحساسا خفيا يساورنى بأننى غير وحيد ، وأننى أهيم فى مجال جاذبية لطيف ، وأن ثمة نظرة رحيبة تستقر على قلبى ، فأنظر ناحية التكية . هناك تحت شجرة التوت الوسيطة يقف رجل . درويش ولكنه ليس كالدراويش الذين رأيت من قبل . طاعن فى الكبر ، مديد فى الطول ، وجهه بحيرة من نور مشع . عباءته خضراء وعمامته الطويلة بيضاء وفخامته فوق كل تصور وخيال . ومن شدة حملقتى فيه أثمل بنوره فيملأ منظره الكون . وخاطر طيب يقول لى إنه صاحب المكان وولى الأمر ، وأنه ودود بخلاف الآخرين . أقترب من السور ثم أقول بابتهال :

ــ إنى أحب التوت ..

فلم ينبس ولم يتحرك فأتوهم أنه لم يسمعنى ، أكرر بصوت أعمق :

ــ إنى أحب التوت ..

يخيل إلى أنه يشملنى بنظرة ، وصوته الرخيم يقول :

ــ « بلبلى خون دلى خورد وكلى حاصل كرد » .

ويخيل إلى أنه رمى إلى بثمرة فأنحنى نحو الأرض لألتقطها فلا أعثر على شىء ثم أستقيم فأجد مكانه خاليا ، والظلمة تغشى الباب الداخلى .



وأقص القصة على أبى فيرمقنى بارتياب فأؤكدها له فيقول:

ــ تلك الأوصاف لا تكون إلا للشيخ الكبير ولكنه لا يغادر خلوته !

فأحلف له على صدقى بكل مقدس فيسألنى :

ــ ترى ما معنى الرطانة التى حفظتها ؟

ــ سمعتها مرارا ضمن تراتيل التكية ..

فيصمت أبى مليا ثم يقول :

ــ لا تخبر بذلك أحدا .

ويبسط يديه ثم يتلو الصمدية .

وأهرع إلى الساحة فأتخلف وحدى بعد ذهاب الصبيان . أنتظر ظهور الشيخ فلا يظهر . أهتف بصوتى الرفيع :

ــ « بلبلى خون دلى خورد وكلى حاصل كرد » .

فلا يجيب . أعانى بلاء الانتظار وهو لا يرحم لهفتى .

وأتذكر الحادثة فى زمن متأخر ، أتساءل عن حقيقتها ، هل رأيت الشيخ حقا أو ادعيت ذلك استوهابا للأهمية ثم صدقت نفسى ؟ ، هل توهمت ما لا وجود له من أثر النوم ولكثرة ما يقال فى بيتنا عن الشيخ الكبير ؟ . هكذا أفكر ، وإلا فلماذا لم يظهر الشيخ مرة أخرى ؟ . ولماذا يجمع الناس على أنه لا يغادر خلوته ؟ . هكذا خلقت أسطورة وهكذا بددتها . غير أن الرؤية المزعومة للشيخ قد استقرت فى أعماق نفسى كذكرى مفعمة بالعذوبة . كما أننى ما زلت مولعا بالتوت .

# الحكاية رقم «٢»

شمس الضحى تسطع والسماء صافية . من موقفى فوق السطح أرى المآذن والقباب ، وأرى غرابا واقفا على وتد مغروز فى سور السطح مربوط به حبل الغسيل . أرمق السطح الملاصق فيتحلب ريقى . تحدثنى نفسى بأن أذهب إلى ست أم زكى لأحظى بشىء من الحلوى . وأعبر السور ، أمضى نحو المنور ، أطل من نافذة فيه مخلوعة الزجاج ، أرى تحت المنور مباشرة ست أم زكى عارية تماما . تجلس على كنبة تتشمس ، تمشط شعرها ، عارية تماما . . منظر غريب وباهر ، وهى فى ضخامة بقرة . وأهتف :

ــ يا تيزة !

ترتعب ، تنظر إلى فوق ، لا تلبث أن تضحك ، تصيح بى :

ــ يا عكروت .. انزل ..

أهبط بسرعة ثم أقف عند الباب بحذر مبهم وأتساءل :

ــ أدخل ؟

وتسمح فأدخل ، أقترب من مجلسها فترمقنى بنظرة باسمة وتقول :

ــ وقعت يا بطل ..

وتستلقى على بطنها وتقول :



ــ دلك لى ظهرى .

أشمر عن ساعدى ، أدلك ظهرها بحماس ورضا ، أشم رائحة جسد بشرى معبق بالصابون والقرنفل ، وهى تتمتم :

ــ تسلم يداك !

ثم بمزاح :

ــ أنت عفريت من الجنة !

ثم وهى تضحك :

ــ الكتكوت الفصيح يخرج من البيضة يصيح .

ويزداد حماسى فى العمل فتقول :

ــ ارفع يدك لفوق يا شيطان ، هل ستخبر أمك ؟

ــ كلا .

فتضحك وتقول :

ــ وعارف أيضا أنه يوجد ما لا يقال ، حقيقة أنك شيطان ، هل تعلمت التدليك فى الكتاب ؟ ، ماذا تدرس فى الكتاب ؟

ــ الفاتحة وألف باء .

ــ ربنا يحفظك وأشوفك ماشطة ، ماذا ستأكل اليوم ؟

ــ بامية .

ــ عظيم سأتغدى عندكم .

زياراتها لبيتنا ندوات للبهجة والمرح ، تنثال الملح من فيها بلا حساب ، وكذلك النكات المكشوفة ، فتحاول أمى أن تبعدنى ولكنى أرجع ، وتشير لها إشارات خفية محذرة فأتشبث بالبقاء وتتمادى هى فى الدعابة .

وتسألها أمى معاتبة :

ـ متى تصلين وتصومين ؟

فتجيب :

ـ فى آخر شهر قبل يوم القيامة .

فى الخمسين ، مهذارة مرحة طروب ولكنها لم تنزلق لسوء ، وعمل ابنها زكى نجارا فى حارتنا فسار بين الناس مرفوع الرأس . وهى تدمن التدخين والقهوة وسماع أسطوانات منيرة المهدية ، أرملة ، فى كل بيت لها صديقة حميمة ، لم تشتبك فى مشاجرة واحدة فى حارتنا الحافلة بالمشاحنات .

* * *

وتتنهد أمى ذات يوم وتقول :

ـ مسكينة يا أم زكى ، ربنا يرعاك ويشفيك ..

تتوعك صحتها ، وتأخذ فى التدهور ، تهزل بسرعة مذهلة كأنها كرة ثقبت ، يترهل جسمها فيغدو طيات من الجلد خاوية ، وتخيب فى شفائها كافة الوصفات . وتفتى حكمة حارتنا الخالدة بأن مرضها ليس مرضا من الأمراض المعروفة ولكنه فعل من أفعال « الأسياد » وألا شفاء لها إلا بالزار . ويجىء اليوم المشهود فيكتظ بيت جارتنا بالنساء ، ويعبق بالبخور ، وتتسلط عليه جوقة من السودانيات يكتنفهن الغموض والأسرار . وأطل برأسى من المنور فأرى صديقتى فى مشهد جديد ، تجلس على عرش فى عباءة مزركشة بالتلى والترتر ، متوجة الرأس بتاج من العاج تتدلى منه عناقيد الخرز مختلف الألوان ، منقوعة



القدمين فى وعاء من ماء الورد تستقر فى قعره حبات من البن الأخضر . وتدق الدفوف ، وتهزج الحناجر النحاسية بالأناشيد المرعشة ، فتفوح فى الجو أنفاس العفاريت ، ويدعو كل عفريت صاحبته المختارة من بين المدعوات للرقص ، فتموج القاعة بالحركات ، وتتوهج بالتأوهات ، وتذوب الأجساد فى الأرواح . وها هى أم زكى تتلوى بعنف كأنما ردت إلى جنون الشباب ، وعن فيها المزين بالأسنان المذهبة يصدر صفير حاد ، ثم تركض دائرة حول العرش ، ويتحول ركضها إلى اندفاع رهيب ، وتدور وتدور حتى تترنح من الإعياء وتتهاوى مغشيا عليها ..

وجلجلت زغرودة وارتفع صوت مبتهلا :

ـ ليشهدنا خاتم الرسل الكرام .

* * *

وها هى الأيام تمر .

وصحة صديقتى لا تتحسن .

لا تمزح الآن ولا تضحك وتتساءل فى جزع :

ـ ماذا جرى لى ؟ .. ماذا جرى لى يا رب ؟ ! .. أين أنت يا أم زكى ؟ !

ويضطر المعلم زكى أخيرا إلى نقلها إلى قصر العينى . وتودع عيناى الدامعتان الكارو وهى تتأرجح بها . وتلمحنى واقفا فتلوح لى بيدها وتقول :

ـ ادع لى فإن الله يستجيب لدعاء الصغار .